ذلك هو «حوار الثقافات»

كُتِبَ الكثير في موضوع حوار الثقافات مع إعلان العام ٢٠٠١ سنةً «الحوار بين الثقافات»، ومع الانعقاد المرتقب لقمّة رؤساء الدول الفرنكوفونيّة في بيروت، في تشرين الأوّل (أكتوبر) من هذا العام. إنّ الفرنكوفونيّة، كما يقول الدكتور بطرس غالي، لا تريد أن تكون ثقافة استيعاد للثقافات الأخرى أو ثقافة استقواء، بل تريد أن تكون نقطة اتّصال للثقافات العالميّة من أجل تسهيل الحوار في ما بينها، إذ إنّ في ذلك استمرارًا ودفعًا لحيويّتها. ويقول قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني في رسالته التي حرّرها مطلعَ هذه السنة حول «الحوار بين الثقافات من أجل حضارة المحبّة والسلام»: إنّ بناء الحوار هو ثقافة بحدّ ذاته، وذلك يتطلّب، من كلّ ثقافة، أن تحافظ على نفسها من ناحية، وأن تهدم الحواجز التي تمنع ديناميّة الحرّيّة من لقاء الآخر وتكوين الروابط الإيجابيّة بين ثقافة وأخرى.

إنّ تأكيد «الحوار بين الثقافات» يوجّه الأنظار إلى الثقافة على أنّها مقولة فكريّة وأدبيّة أساسيّة فاعلة في تاريخ البشريّة. إنّها مجموعةٌ من العناصر أو نماذج السلوك والشعور تظهر وتعبّر عن ذاتيّتها في علاقة ثلاثيّة الأبعاد بالطبيعة والمجتمع والسامي أو المتعالي. فمن ناحية الطبيعة استنبطت الثقافة مجموعة من الأدوات والوسائل؛ وفي علاقتها بالمجتمع، أسّست مختلف القوانين والأنظمة التي من شأنها تنظيم الحياة والمحافظة عليها؛ ومن ناحية المتعالي أو ما يعلو الطبيعة والمجتمع معًا، دلّت الثقافة على الفكر، وأبدعت الفلسفة، وطوّرت الفنون والآداب والعلوم، وأفردت مكانًا للدين والإيمان، إذ أتى بالمعنى الشامل للحياة الفرديّة والجماعيّة.

إنّ النظرة الأكاديميّة هذه إلى الثقافة تبقى بريئة إن لم تكن الثقافة مرتبطة بالواقع الحسّيّ للمجموعات البشريّة، إذ إنّ لكلّ مجموعة بشريّة ثقافة تعتزُّ بها وتحافظ عليها وتؤكّدها نظامًا متكاملًا وتراثًا له أهمّيّته ونفوذه في الحياة اليوميّة، وخصوصًا المجتمعيّة والسامية. عند ذاك إنّ وعي الفرد

والجماعة ذاتيهما يتمّ عبر الارتباط بالثقافة والتراث من خلال حِفْظه وإعادة تأويله في ضوء الواقع، وإذ ذاك يعي الإنسان هويّته ويتعرّف عليها ويعبّر عنها في غَيْئِه الثقافة بمختلف أبعادها، ولا يتورّع عن الدخول في صراعات مع الآخرين، أو مع الثقافات الأخرى، أعالميّةً كانت أم خاصّة، مهما تعدّدت أشكالها وتسمياتها، من ثقافة العولمة أو التكنولوجيا أو الاستهلاك السريع أو العلمانيّة... عندما يشعر بأنّ ثقافته - وبالتالي هويّته - هي مهدّدة.

وإذا كان العنصر الدينيّ حاضرًا بقوّة في الثقافة، وخصوصًا في الثقافات التقليديّة؛ وإذا كان الدين جزءًا لا يتجزّأ من التراث، فإنّه يكون عنصرًا بارزًا له دوره في الصراعات وربّما في إذكائها، لما له من حضور وجوديّ في الرموز والكتب والإعلانات، وبالتالي في الشعور الإنسانيّ الأعمق. في هذا الإطار، تبدو الدعوةُ إلى الحوار بين الثقافات، دعوةً أيضًا إلى الحوار بين الأديان، لها ارتباط بالثقافة والتراث البشريّ. وللحوار أسسه وقواعده وشروطه: إحترام جميع الثقافات والمشاعر، علمًا أنّ الاختلاف في الرأي حول ما تتضمّنه ثقافة معيّنة، لا يلغي الاحترام قاعدةً أساسيّة؛ الابتعادُ عن التطرّف والمغالاة، وهذا يعني القدرة على الإصغاء والاستماع إلى الآخر؛ تقدير ما هو إيجابيّ في إطار النقاش وفي إطار رؤية الثقافة المغايرة؛ حذف الأفكار المسبقة عن الثقافة الأخرى قدر الإمكان. ويدخل في هذه اللائحة مقولة التضامن، وهو ترجمة حسّيّة وواقعيّة للانتماء إلى جماعة مدنيّة واحدة تعمل من أجل الحرّيّة والعيش الكريم والتطوّر والخروج من الجهل والظلمة.

وإذا نظرنا إلى عناوين مقالات «المشرق» في هذا العدد، نجد أنّها تسلّط الضوء على مضامين الثقافة، في جمودها وديناميّتها، انطلاقًا من جبل آثوس الأرثوذكسيّ، والتعليم بدمشق في زمن المماليك، وعلاقة القِيَم الحديثة بالتربية، إلى فضاء أبي حامد الغزالي وتفسير سورة الإخلاص عبر التأويل وقواعده. وهكذا، تشارك «المشرق» في مهمّة الكلام بموضوعيّة واعتدال الحقّ على موضوعاتٍ مهمّة شاقّة وشائقة معًا.